# الباب الثانى

## الحقيقة عند الغزالى

الفصل الأول : وسيلة الحقيقة عند الغزالى .

الفصل الثانى : جوهر الحقيقة عند الغزالى .

obeikandl.com

obeikandl.com

## الفصل الأول

# وسيلة الحقيقة عند الغزالى *

مر بنا أن الغزالى ارتأى طريقة المتصوفة فى اكتساب المعارف ، هى الطريقة القويمة . والآن نريد أن نزيد هذه الطريقة إيضاحاً وبسطاً . وهى جديرة بأن تُبحث ، وأن يوقف معها وقفات ليست بالقصيرة ؛ لأنها ذات شأن هام فى حياته الفكرية . فهى التى انتشلته من وهدة الشكوك التى تردى فيها ، وهى التى بسببها فضَّل المتصوفة على الفلاسفة والمتكلمين . وهى عنده مصدر العقيدة الدينية.

قال صاحبا مقدمة المنقذ[1] :

[ وبالرغم من أن الغزالى ، قد اقتبس فكرة الكشف هذه ، من طريقة الصوفية ؛ فإنه امتاز عن غيره . ، بجعلها مفتاح العلوم ، ومصدر العقيدة الدينية »] .

قال الغزالى[2] :

[ إن العلوم التى ليست ضرورية ، وإنما تحصل فى القلب فى بعض الأحوال ؛ يختلف الحال فى حصولها .

فتارة تهجم على القلب ، كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى .

وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم .

فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل ؛ يسمى إلهاماً .

والذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً .

---

* لم أر بأساً فى استمداد معلومات هذا الفصل ، من كتاب الإحياء وغيره ، كميزان العمل ، لأمرين

ا — أن هذه النظرية لا يراها الغزالى سراً ، يضن بنشره على الجمهور ، بل هو يود لو عمت معرفتها الجميع ، ولم يأخذوا العلم إلا عن طريقها كما سيأتى فى ثنايا البحث .

ب — أن هذه النظرية موجودة فى كتاب معارج القدس ، بنفس المعلومات التى اقتبسناها من الكتب الأخرى ، غير أنها فى تلك الكتب أوضح وأوفى .

(١) ص ٤٩ .

(٢) الإحياء ج ٨ ص ٣٢ .

ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ، ينقسم :

١ — إلى ما لا يدرى العبد أنه من أين حصل له ؟ وكيف حصل ؟

٢ — وإلى ما يطلع معه على السبب الذى استفاد منه ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب .

والأول يسمى إلهاماً ونفثاً فى الروع .

والثانى يسمى وحياً ويختص به الأنبياء .

والأول يختص به الأولياء والأصفياء .

والذى قبله وهو المكتسب بطريق الاستدلال ، يختص به العلماء .

وحقيقة القول فيه ، أن القلب مستعد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق فى الأشياء كلها ، وإنما حيل بينه وبينها ، بالأسباب الخمسة التى سبق ذكرها[1] فهى كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب ، وبين اللوح المحفوظ . الذى هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة .

وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح فى مرآة القلب ، يضاهى انطباع صورة من مرآة فى مرآة تقابلها .

والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد ، وأخرى يزول بهبوب رياح تحركه ، وكذلك قد تهب رياح الألطاف ، وتنكشف الحجب عن أعين القلوب ، فيتجلى فيها بعض ما هو مسطور فى اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند المنام ، فيعلم به ما يكون فى المستقبل ، وتمام ارتفاع الحجاب بالموت . فبه ينكشف الغطاء فى اليقظة ... وحين يرتفع الحجاب بلطف خفى من الله تعالى ؛ يلمع فى القلوب من وراء ستر الغيب ، شىء من غرائب العلم . تارة كالبرق الخاطف ، وأخرى على التوالى إلى حد ما ، ودوامه فى غاية الندور ] .

فهذه الفقرات تدل على أن أساس المعرفة ، سواء معرفة الصوفية والأنبياء ومعرفة العلماء ؛ هو محاذاة مرآة القلب للوح المحفوظ ، وإزالة الحجاب الحائل بينهما . فالعلماء يحاولون إزالته باكتسابهم . والأنبياء والأولياء تهب رياح الألطاف فتزيله لهم من غير بذل عناء منهم ، ولكن فى النهاية بعد إزالة الحجاب تكون الحال

---

(١) سيأتى القول فيها .

عند الطرفين واحدة ، وهى الاطلاع على اللوح المحفوظ .

ويستمر الغزالى فيصرح بما استنتجناه قائلا :

[ فلم يفارق الإلهام الاكتساب فى نفس العلم ، ولا فى محله ، ولا فى سببه ] .

أى لأن العلم فى الحالين ، هو النقش الذى انطبع فى مرآة القلب ، عند مقابلة مرآة اللوح المحفوظ ، من غير حجاب بينهما .

ولأن محل العلم فى الحالين هو القلب .

ولأن سببه فى الحالين هو زوال الحجاب .

[ ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب ] .

أى لأن صاحب الإلهام لا يزيل الحجاب ، بل العناية الإلهية تكفيه مؤونة ذلك ، بخلاف المكتسب ، فعليه أن يحاول رفع الحجاب وإزالته .

[ ولم يفارق الوحى الإلهام فى شىء من ذلك ، بل فى مشاهدة الملك الملقى للعلم . فإن العلم إنما يحصل فى قلوبنا بواسطة الملائكة .

فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ؛ فلذلك لم يحرصوا على دراسة[1] العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون ، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة .

بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى .

ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم . وإذا تولى الله أمر القلب ، فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغِرّة ، بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية .

فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة ، والتفطن التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة ، والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا ، والتبرى عن علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، فمن كان لله كان الله له ] .

---

(١) صرح الغزالى فى « ميزان العمل » بأن التصوف مرحلة تأتى بعد انتهاء مرحلة النظر انظر ص ٢٢٨ ط دار المعارف وانظر اللمع لأبى نصر السراج ص ٤٠ دار الكتب الحديثة .

ثم لا يكتفى الغزالى بالمقارنة التى جاءت عرضاً أثناء هذا الفصل بين علم العلماء وعلم المتصوفة ، فيعقد لذلك فصلا فى نفس الكتاب . ونرى أن نقتبسه هنا لندون مالنا عليه من ملاحظات ، ولنبين وجوه الاختلاف بين الفصلين .

قال[١] :

[ اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضاً خارج عن إدراك الحس . وما ليس مدركاً بالحواس ، تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس . ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين .

**أحدهما :**

أنه لو فرضنا حوضاً محفوراً فى الأرض ، احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه ، بأنهار تقع فيه . ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ، ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافى ، فيتفجر الماء من أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم ، وقد يكون أغزر وأكثر .

فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار .

وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس ، والاعتبار بالمشاهدات ، حتى يمتلئ علماً ؛ ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة . وغض البصر . ويعمد إلى عمق القلب ، بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه . حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله .

فإن قلت ، فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه .

فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ، ولا يسمح بذكره فى علم المعاملة ، بل القدر الذى يمكن ذكره : أن حقائق الأشياء مسطورة فى اللوح المحفوظ ، بل فى قلوب الملائكة المقربين . فكما أن المهندس يصور أبنية الدار فى بياض ، ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، فكذلك فاطر السماوات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره ، فى اللوح المحفوظ ؛ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة ؛ والعالم الذى خرج إلى الوجود بصورته ، تتأدى منه صورة

---

(١) ج ٨ ص ٣٥ .

أخرى إلى الحس والخيال ، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ، ثم يغض بصره ، يرى صورة السماء والأرض فى خياله . حتى كأنه ينظر إليهما ، ولو انعدمت السماء والأرض وبقى هو ، فى نفسه ، لوجد صورة السماء والأرض فى نفسه ، كأنه يشاهدهما وينظر إليهما ؛ ثم يتأدى من خياله ، أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء ، التى دخلت فى الحس والخيال .

والحاصل فى القلب موافق للعالم الحاصل فى الخيال ، والحاصل فى الخيال موافق للعالم الموجود فى نفسه خارجاً من خيال الإنسان وقلبه ، والعالم الموجود فى نفسه موافق للنسخة الموجودة فى اللوح المحفوظ .

فكأن للعالم أربع درجات فى الوجود .

وجود فى اللوح المحفوظ ، وهو سابق فى الوجود على وجوده الجسمانى .

ويتبعه وجوده الحقيقى .

ويتبع وجوده الحقيقى وجوده الخيالى : أعنى وجود صورته فى الخيال .

ويتبع وجوده الخيالى وجوده العقلى : أعنى وجود صورته فى القلب .

وبعض هذه الوجودات روحانية ، وبعضها جسمانية ، والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض .

فالقلب يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته : تارة من الحواس ، وتارة من اللوح المحفوظ . كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها ، وتارة من النظر إلى الماء الذى يقابل الشمس ويحكى صورتها ، فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه . فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض .

ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة عن المحسوسات ، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ ؛ كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار ، منع ذلك من التفجر من الأرض ؛ وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس . لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس .

فإذن للقلب بابان .

باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة .

وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة ، وعالم الشهادة والملك أيضاً يحاكى عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة .

فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس ، فلا يخفى عليك .

وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ ، فيعلم علماً يقينيا بالتأمل فى عجائب الرؤيا وفى اطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل ، وكان فى الماضى ، من غير اقتباس من جهة الحواس .

فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا .

وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب ، من الباب المفتوح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكماء يأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك ] .

ولنا على هذا ملاحظات :

**الأولى :**

أنه يقرر أن علم الأولياء والصوفية ، يأتى عن طريق اطلاعهم على اللوح المحفوظ مباشرة ، وهو المسمى بعالم الملكوت والغيب .

أما علم الحكماء والعلماء ، فيأتى عن طريق الحواس الناقلة عن عالم الملك والشهادة ، وعالم الملك والشهادة يحاكى عالم الملكوت والغيب ، نوعاً من المحاكاة لا كل المحاكاة ، كما صرح هو .

وإذن تكون الصورة المنقوشة فى النفس ، المأخوذة عن عالم الملكوت والغيب ، وهى علم الأولياء ، مخالفة للصورة المأخوذة عن عالم الملك والشهادة ، بطريق الحواس ، وهى علم العلماء ، ضرورة أن عالم الملك والشهادة لا يحاكى تمام المحاكاة عالم الملكوت والغيب ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، فإن علم الحكماء مأخوذ بواسطة الحواس ، وقد سبق للغزالى أن رفع الثقة بها ، ولم يرضها طريقاً صحيحة للوصول إلى المعرفة اليقينية .

فإذن الغزالى يجوز الخطأ على الحواس ، حين تنقل صورة العالم المحسوس ، أعنى عالم الملك والشهادة ، إلى النفس ، حتى على فرض أنه يحاكى عالم الملكوت والغيب تمام المحاكاة .

وإذا كان الأمر كذلك فسيكون علم العلماء مخالفاً لعلم الصوفية . لاختلاف الأصلين اللذين ينقل عنهما العلم ؛ ولاختلاف وسائل النقل .

فكيف جاز للغزالى أن يقول فيما سبق :

[ ولم يفارق الإلهام الاكتساب فى نفس العلم ] .

**الثانية :**

أن الغزالى يصرح هنا أن علم الصوفية ينبع من القلب : أعنى لا يحتاج إلى الحواس ، بل تطلع النفس على اللوح المحفوظ ، فى حالة تكون الحواس فيها معطلة تماماً .

أما علم العلماء فإنه يأتى عن طريق الحواس ، فيكون السبب فى اكتساب العلمين مختلفاً ، فكيف جاز للغزالى أن يقول فيما سبق :

[ ولم يفارق الإلهام الاكتساب فى سبب العلم ] .

**الثالثة :**

أن حصر الغزالى الفرق بين العلمين فى سبب زوال الحجاب يفيد — وإن لم يصرح — أن الحجاب الذى يمنع العلم عن كلا الفريقين واحد ، مع أنه مختلف على مذهبه تمام الاختلاف ، لأنه بالنسبة للصوفية هى المعاصى التى ترين على مرآة القلب . فلا تنطبع صورة اللوح المحفوظ فيها . وبالنسبة إلى العلماء غفلة الحواس وعدم تغلغلها فى مخبئات الكون .

**الرابعة :**

أن الغزالى يقول : إن العلماء يزيلون بأنفسهم الحجاب الذى يحول بينهم وبين العلم ، أما الصوفية فإن رياح الألطاف تهب فترفع هذا الحجاب من غير بذل عناء منهم فى رفعه . مع أن هذا الحجاب ما دام هو حب الدنيا بالنسبة إليهم ، فلابد أن يفرغوا الوسع فى إزالته . وإن ما يبذلونه من العناء فى سبيل رفع حجابهم لأشد بكثير جدا مما يبذله العلماء ؛ لأنه لابد للصوفية من أن يصلوا إلى حال ، يستوى فيها وجود كل شىء وعدمه ودون هذه الحال خرط القتاد .

وقد مر بنا حديث ما لاقاه الغزالى من أزمة نفسية — حين هم بالدخول فى طريقهم — مع أنه من أبطالهم الذين يشار إليهم بالبنان ، فما بالك بعامتهم ؟ .

أما العلماء فيكفيهم أن يتحللوا بعض الشىء من الشواغل فى أوقات خاصة يخلون فيها إلى عقولهم ، وحواسهم ، وكتبهم ، وأساتذتهم ، أما فيما عدا هذه الأوقات ، فهم أناس ككل الناس يتزوجون ، ويلتقون بالناس ، ويعاملونهم بالبيع والشراء ، والأخذ والعطاء . وبالجملة يدخلون فى فلك الحياة الدائرة ، ويطبق عليهم قانونها العام .

**الخامسة :**

أن الغزالى فى الفصل السابق يقرر أن الفريقين فى النهاية بعد سلوك كل مسلكه الخاص به ، يطلع على اللوح المحفوظ ، وهنا يقرر أن الخيالات الحاصلة عن الحواس ، تكون حجاباً للعلماء عن مشاهدة اللوح المحفوظ .

وإتماماً للفائدة نسوق باقى النص :

**[ المثال الثانى :**

يعرفك الفرق بين العملين ، أعنى عمل العلماء ، وعمل الأولياء : فإن العلماء يعملون فى اكتساب نفس العلوم ، واجتلابها إلى القلب ، وأولياء الصوفية يعملون فى جلاء القلوب وتطهيرها ، وتصفيتها وتصقيلها فقط .

فقد حكى أن أهل الروم وأهل الصين ، تباهوا بين يدى الملوك ، بحسن صناعة النقش والصور . فاستقر رأى الملك على أن يسلم إليهم صفّة ، لينقش أهل الصين منها جانباً ، وأهل الروم جانباً ، ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ؛ ففعل ذلك .

فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر ، ودخل أهل الصين من غير صبغ ، وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه .

فلما فرغ أهل الروم ، ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً ، فعجب الملك من قولهم ، وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ ؛ فقيل وكيف فرغتم

من غير صبغ ؟ ! فقالوا : وما عليكم ؟ ! . ارفعوا الحجاب ، فرفعوا ، وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية ، مع زيادة إشراق وبريق ، إذ كان كالمرآة المجلوة ، لكثرة التصقيل ، فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل .

فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه ، وتزكيته وصفائه ، حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق ، كفعل أهل الصين .

وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ، ونقش العلوم ، وتحصيل نقشها فى القلب ، كفعل أهل الروم .

فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت ، وعلمه عند الموت لا ينمحى ، وصفاؤه لا يتكدر ] .

وقد عقد الغزالى فصلا فى كتابه « ميزان العمل[١] » ، لبيان الأولى من الطريقين طريق العلماء ، وطريق المتصوفة ، قال فيه :

[ فإن قلت : فقد مهدت للسعادة طريقين متباينين ، فأيهما أولى عندك ؟ !

فاعلم : أن الحكم فى مثل هذه الأمور ، بحسب الاجتهاد الذى يقتضيه حال المجتهد ، ومقامه الذى فيه .

والحق الذى يلوح لى — والعلم عند الله فيه — أن الحكم بالنفى أو الإثبات فى هذه على الإطلاق ، خطأ ، بل يختلف بالإضافة إلى الأشخاص والأحوال .

فكل من رغب فى السلوك « فقد كبر شأنه[٢] » ، فالأولى به أن يقتنع بطريق الصوفية ، وهو المواظبة على العبادة ، وقطع العلائق ، فإن البحث عن العلوم الكسبية لتحصل ملكة نابتة فى النفس شديد ، ولا يتيسر إلا فى عنفوان العمر ، والتعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، ومن العناء رياضة الهرم ، وقيل لأحد الأكابر ، من أراد أن يتعلم شيخاً ما يفعل ؟ ! فقال « اغسل مسحاً[٣] فعساه يبيض »

وقد خرج من هذا : أن الأولى بأكثر الخلق الاشتغال بالعمل ، والاقتصار

---

(١) ص ٤٩ .

(٢) كذا فى الأصل ، وصوابها « بعد كبر سنه » .

(٣) كذا فى الأصل .

من العلم على القدر الذى يعرف به العمل ، فإن الأكثر لا ينتبهون لهذا الأمر ، فى عنفوان الشباب .

وإن تنبه فى عنفوان شبابه ؛ نظر إلى طبعه وذكائه ، فإن علم : أنه لا يستعد لفهم الحقائق العقلية الدقيقة ، وجب عليه أن يشتغل بالعمل أيضاً ؛ فلا فائدة فى اشتغاله بالعلوم النظرية ، وهم الأكثرون من الأقل الذى تتبعناه .

فإن كان ذكياً قابلا للعلوم ، فإن لم يكن فى بلده أو فى العصر مشتغل بالعلوم النظرية ، مترق عن رتبة تقليد من سبقه ، فالأولى به العمل ؛ فإن هذه لا يمكن تحصيلها إلا بمعلم ، فليس فى القوة البشرية فى شخص واحد الوصول إليها إلا قليلا بطول الزمن .

ولذلك لو لم يكن علم الطب مثلا صار منسقاً مرتباً ، متقناً بالخواطر المتعاونة فى الأزمنة المتطاولة ، لافتقر أذكى الناس إلى عمر طويل ، فى معرفة علاج علة واحدة ، فضلا عن الجميع .

والغالب فى البلاد الخلو عن مثل هذا العالم المستقل .

فإذن لم يبق إلا قليل من قليل ، وهو ذكى ، تنبه فى عنفوان عمره لهذا الأمر ، وهو مستعد لفهم العلوم ، وصادف عالماً مستقلاً بالعلوم ، تحقيقاً لا اسماً ، وحسبة لا رسماً ، كما ترى من أكثر العلماء .

فهم إما مقلدون فى أعيان المذاهب ، أو فى أعيان تلك المذاهب وأدلة تلك المذاهب جميعاً ، على الوجه الذى تلقوه من أرباب المذاهب .

ومن قلد أعمى فلا خير فى متابعة العميان واتباعهم .

أو شاب نشأ فى طلب العلم ، وهو ذكى فى نفسه ، وتنبه له بعد الارتياض بأنواع العلوم ، ولكن بهذا النوع من العلم الذى تنبه له :

فمثل هذا الشخص مستعد للطريقين جميعاً . فالأولى به أن يقدم طريق التعلم فيحصل من العلوم البرهانية ، ما للقوة البشرية إدراكه ، بالجهد والتعلم ، فقد كفى المؤونة فيه بتعب من قبله . فإذا حصل ذلك على قدر إمكانه ، حتى لم يبق علم من جنس هذه العلوم إلا وقد حصله . فلا بأس بعده أن يؤثر الاعتزال عن الخلق ، والإعراض عن الدنيا ، والتجرد لله . وأن ينتظر فحواه ينفتح له بذلك

الطريق . ما التبس على سالكي هذه الطريق .

هذا ما أراده — والعلم عند الله — .

وقد يخرج منه أن الصواب لأكثر الخلق ، الاشتغال بالعمل ، ومن العمل العلم العملي : أعني ما يعرف به كيفيته ؛ فإن العلم العملي ليس بأشرف من العمل ، بل هو دونه ، فإنه مراد له . دون العلم الذي يراد منه المعلوم : كالعلم بالله وصفاته . وملائكته وكتبه ورسله . والعلم بالنفس وصفاتها . والعلم بملكوت السموات والأرض وغيره .

فهذه العلوم نظرية وليست بعملية ، وإن كان قد ينتفع بها في العمل على سبيل العرض . لا على سبيل القصد .

لكون الصواب في العمل لأكثر الخلق ، استقصاه النبي صلى الله عليه وسلم ، تفصيلاً وتأصيلاً ، حتى علم الخلق الاستنجاء وكيفيته . ولما آل الأمر إلى العلوم النظرية ، أجمل ولم يفصل ، ولم يذكر من صفات الله إلا أنه ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

نعم بعد إجمال العلم ، ذكر من تعظيمه وتشريفه وتقديمه على العمل ، ما لا يكاد يحصى . كقوله : « تفكر ساعة ، خير من عبادة سنة » . وكقوله : « فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر » . إلى غير ذلك مما ورد فيه .

ثم ذلك العلم المقدم على العمل ، لا يخلو إما أن يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات . وإما أن يكون علماً سواه ، وباطل أن يكون الأول هو المراد لوجهين :

أحدهما : أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذي له العلم بالعبادة ، وإلا فهو عابث فاسق .

والثاني : أن العلم بالعمل ، لا يكون أشرف من العمل ، لأن العلم العملي لا يراد لنفسه . وإنما يراد للعمل ، وما يراد لغيره ، يستحيل أن يكون أشرف منه ] .

وواضح أنه قد خلص من هذا الفصل ، بأن الأولى بالخلق جميعاً الاشتغال بالعمل الذي هو طريق المتصوفة في كسب المعارف والعلوم ، غير أنه رأى نفراً قليلاً

بل أقل من القليل ، لا بأس أن يشتغلوا بطريق النظار أولا حتى إذا انتهوا إلى الحد الذى يقف عنده النظار عادة ، عرجوا على طريق المتصوفة ليدركوا عنه ، ما أعياهم إدراكه عن طريق النظر .

وقد عقد فى كتابه الإحياء فصلا للدفاع عن طريق الصوفية أمام من ناقشوه قائلين[1]: [ إننا لا ننكر وجود هذا الطريق وإمكانه ، وإفضاءه إلى المقصد على الندور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء . ولكنا نستوعر هذا الطريق ، ونستبطئ ثمرته ! ونستبعد استجماع شروطه . إذ أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر ، وإن حصل فى حال فثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر فى غليانها » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

وفى أثناء هذه المجاهدة ، قد يفسد المزاج ، ويختلط العقل ، ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم ، نشبت بالقلب خيالات فاسدة ، تطمئن النفس إليها مدة طويلة ، إلى أن يزول وينقضى العمر قبل النجاح فيها .

فكم من صوفى سلك هذا الطريق ، ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل ، لا نفتح له وجه التباس ذلك الخيال فى الحال . فالاشتغال بطريق التعلم أقرب وأوثق إلى الغرض .

وإن ذلك يضاهى ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يتعلم ذلك ، وصار فقيهاً بالوحى والإلهام ، من غير تكرير وتعليم فأنا أيضاً ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه .

ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه ، وضيع عمره . بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة ، رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً . فكذلك هذا .

فلا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء، وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس بعد

---

(١) ص ٣٤ ج ٨ .

ذلك بالانتظار ، لما لم ينكشف لسائر العلماء ، فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة].

قال الغزالى فى مناقشة هؤلاء :

[ بيان شواهد من الشرع ، على صحة طريق أهل التصوف ، فى اكتساب المعرفة ، لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد :

اعلم أن من انكشف له شىء ، ولو الشىء اليسير ، بطريق الإلهام والوقوع فى القلب ، من حيث لا يدرى ؛ فقد صار عارفاً بصحة الطريق ، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغى أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً .

ويشهد لذلك شواهد الشرع ، والتجارب والحكايات .

أما الشواهد فقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهو بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة . ومن لم يعمل بما يعلم ، تاه فيما يعلم ، ولم يوفق فيما يعمل ، حتى يستوجب النار » . وقال الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » من الإشكالات والشبه« ويرزقه من حيث لا يحتسب » يعلمه علماً من غير تعلم ، ويفطنه من غير تجربة ، وقال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر فى دعائه من سؤال النور ، فقال عليه الصلاة والسلام « اللهم اعطنى نوراً . وزدنى نوراً ، واجعل فى قلبى نوراً ، وفى قبرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً حتى قال : فى شعرى ، وفى بشرتى ، وفى لحمى ودمى وعظامى » وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » ما هذا الشرح ؟ ! فقال : « هو التوسعة ، إن النور إذا قذف فى القلب ؛ اتسع له الصدر وانشرح » .

وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وقال علىّ رضى الله عنه « ما عندنا شىء أسره النبى صلى الله عليه وسلم إلينا ، إلا أن يؤتى الله تعالى عبداً فهماً فى كتابه ، وليس هذا بالتعلم» . وقيل فى تفسير قوله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء » إنه الفهم فى كتاب الله تعالى. وقال تعالى: « ففهمناها سليمان » خص ما انكشف باسم الفهم . وكان أبو الدرداء يقول :

المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق ، والله إنه للحق يقذفه الله تعالى فى قلوبهم . ويجريه على ألسنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة . وقال صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى . وإليه يشير قوله تعالى: « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » وقوله تعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العلم علمان . فعلم باطن فى القلب ، فذلك هو العلم النافع » . وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ، فقال : هو سر من أسرار الله تعالى ، يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبائه ، لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتى محدَّثين ، ومعلَّمين ، ومكَّلمين وإن عمر منهم » وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدَّث » يعنى الصديقين . والمحدَّث هو الملهم ، والملهم هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسوسات الخارجة ، والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم .

وقال الله تعالى: « وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون » خصصها بهم . وقال تعالى : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يعلم من كتاب . فإذا نسى ما حفظه صار جاهلاً ، إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء ، بلا حفظ ولا درس . وهذا هو العلم الربانى . وإليه الإشارة بقوله تعالى: « وعلمناه من لدنَّا علماً » مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علماً لدنيًّا . بل اللدنى الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج .

فهذه شواهد النقل . ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات ، والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر ، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم .

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته : إنما

هما أخواك وأختاك . وكانت زوجته حاملاً فولدت بنتاً . فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت .

وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته : يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ ، إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه . فحذره لمعرفته ذلك . ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه ، وكنت قد لقيت امرأة فى طريقى ، فنظرت إليها شذراً وتأملت محاسنها ، فقال عثمان رضى الله عنه ، لما دخلت : يدخل علىّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه ، أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ ! لتتوبن أو لأعزرنك ! !

فقلت : أوحى بعد النبى ؟ فقال : لا ، ولكن بصيرة وبرهان ، وفراسة صادقة .

وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيراً عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى : هذا وأشباهه كَلٌّ على الناس ، فنادانى وقال : والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه . فاستغفرت الله فى سرى ، فنادانى وقال : وهو الذى يقبل التوبة من عباده ، ثم غاب عنى ولم أره .

وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق ، على أبى الفضل الهاشمى ، وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قمت قلت فى نفسى : من أين يأكل هذا الرجل ؟ ! ، قال : فصاح بى يا أبا العباس رُدَّ هذه النهمة الدنية ، فإن لله تعالى ألطافاً خفية .

وقال أحمد النقيب : دخلت على الشبلى ، فقال : مفتون يا أحمد ! ! فقلت : ما الخبر ؟ ! قال : كنت جالساً ، فجرى بخاطرى أنك بخيل[1] ، فقلت ما أنا بخيل ، فعاد منى خاطرى وقال : بل أنت بخيل ، فقلت ما فُتح اليوم على بشىء ، إلا دفعته إلى أول فقير يلقانى . قال : فما استتم الخاطر ، حتى دخل علىّ صاحب المؤنس الخادم ، ومعه خمسون ديناراً ، فقال : اجعلها فى مصالحك . قال : فقمت فأخذتها وخرجت ، وإذا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق

---

(١) يخاطب نفسه .

رأسه ، فتقدمت إليه ، وناولته الدنانير ، فقال : اعطها المزين ، فقلت : إن جملتها كذا وكذا ، فقال : أو ليس قد قلنا لك : إنك بخيل ! ! ! ، قال : فناولتها المزين ، فقال المزين : قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجراً ، قال فرميت بها فى دجلة ، وقلت ما أعزك أحد ، إلا أذله الله عز وجل .

وقال حمزة بن عبد الله العلوى : دخلت على أبى الخير التينانى ، واعتقدت فى نفسى أن أسلم عليه ، ولا آكل من داره طعاماً . فلما خرجت من عنده ، إذا به قد لحقنى ، وقد حمل طبقاً فيه طعام ، وقال : يا فتى كُلْ فقد خرجتَ الساعةَ من اعتقادك . وكان أبو الخير التينانى هذا مشهوراً بالكرامات .

وقال إبراهيم الرقى : قصدته مسلماً عليه ، فحضرت صلاة المغرب ، فلم يكد يقرأ الفاتحة مستوياً ، فقلت فى نفسى ضاعت سَفرتى ، فلما سلَّم خرجت إلى الطهارة ، فقصدنى سبع ، فعدت إلى أبى الخير ، وقلت : قصدنى سبع ، فخرج وصاح به وقال : ألم أقل لك لا تتعرض لضيفانى ، فتنحى الأسد ، فتطهرت ، فلما رجعت قال لى : اشتغلتم بتقويم الظاهر ، فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم الباطن ، فخافنا الأسد .

وما حكى من تفرس المشايخ ، وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم ، يخرج عن الحصر ، بل ما حكى عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام ، والسؤال منه سماع صوت الهاتف ، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر .

والحكاية لا تنفع الجاحد ، ما لم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل .

والدليل القاطع الذى لا يقدر أحد على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك فى النوم ، فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة ، فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر ؛ لاشتغاله بنفسه .

الثانى : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمور فى المستقبل ، كما اشتمل

عليه القرآن ، وإذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون فى الوجود ، شخص مكاشف بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى نبيًّا ، بل يسمى وليًّا .

فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان :

باب إلى خارج ، وهو الحواس .

وباب إلى الملكوت من داخل القلب ، وهو باب الإلهام والنفث فى الروع ، والوحى .

فإذا أقر بهما جميعاً ، لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ، ومباشرة الأسباب المألوفة ؛ بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلاً إليه ] .

* * *

ولم يشأ الغزالى أن يغفل أمر الحجاب الذى ذكر أنه يحول بين القلب وبين اللوح المحفوظ ، وأنه : تارة يزال بالاكتساب ، وأخرى بهبوب رياح الألطاف ، فعقد له فصلا خاصا فى الإحياء جاء فيه [١] :

[ اعلم أن محل العلم هو القلب ، أعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح ، وهى المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء ، وهى بالإضافة إلى حقائق المعلومات ، كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات : فكما أن للمتلون صورة ، ومثال تلك الصورة ينطبع فى المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة ، ولتلك الحقيقة صورة ، تنطبع فى مرآة القلب ، وتتضح بها . وكما أن المرآة غير ، وصور الأشخاص غير ، وحصول مثالها فى المرآة غير ، فكذلك ههنا ثلاثة أمور :

١ ــ القلب .

٢ ــ حقائق الأشياء .

٣ ــ حصول نفس الحقائق وحضورها فيه .

فالعالم عبارة عن القلب الذى فيه يحل مثال حقائق الأشياء . والمعلوم عبارة

---

(١) جـ ٨ ص ٢٢ .

عن حقائق الأشياء . والعلم عبارة عن حصول المثال فى مرآة القلب .

وكما أن القبض مثلاً يستدعى قابضاً كاليد ، ومقبوضاً كالسيف ، ووصولا بين السيف واليد ، ويسمى قبضاً . فكذلك وصول مثال العلوم إلى القلب ، يسمى علماً ، وقد كانت الحقيقة موجودة ، والقلب موجوداً ، كما أن السيف موجود ، واليد موجودة ، ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلاً ، لعدم وقوع السيف فى اليد . نعم القبض عبارة عن وصول السيف بعينه فى اليد ، والمعلوم بعينه لا يحصل فى القلب ، فمن علم النار لم تحصل عين النار فى قلبه ؛ ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها ، فتمثيله بالمرآة أولى ؛ لأن عين الإنسان لا تحصل فى المرآة ، وإنما يحصل مثال مطابق له ، وكذا حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم فى القلب يسمى علما .

وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصور لخمسة أمور :

الأول : نقصان صورتها كجوهر الحديد ، قبل أن يدوّر ، ويشكّل ويصقل .

الثانى : لخبثه وصدئه وكدورته ، وإن كان تام الشكل .

الثالث : لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها ، كما إذا كانت الصورة وراء المرآة .

الرابع : لحجاب مرسل بين المرآة والصورة .

الخامس : للجهل بالجهة التى فيها الصورة المطلوبة ، حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها .

فكذلك القلب مرآة مستعدة ، لأن يتجلى فيها حقيقة الحق فى الأمور كلها ، وإنما خلت القلوب عن العلوم التى خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة :

١ ــ نقصان فى ذاته ، كقلب الصبى ، فإنه لا ينجلى له المعلومات لنقصانه .

٢ ــ لكدورة المعاصى والخبث ، الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات ؛ فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه ، فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً » أى حصل فى قلبه كدورة لا يزول أثرها ؛ إذ غايته أن يتبعه

بحسنة يمحوه بها ، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة ، لازداد لا محالة إشراق القلب ؛ فاما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة . لكن عاد القلب إلى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نوراً ، فهذا خسران مبين ، ونقصان لا حيلة فيه ، فليست المرآة التى تتدنس ثم تمسح بالمصقلة، كالتى تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق ، فالإقبال على طاعة الله ، والإعراض عن مقتضى الشهوات ، هو الذى يجلو القلب ويصفيه ، ولذلك قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم » .

٣ ــ أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة ؛ فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً ، فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق ؛ لأنه ليس يطلب الحق ، وليس بمحاذياً بمرآته شطر المطلوب ، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية ، أو بتهيئة أسباب المعيشة ، ولا يصرف فكره إلى التأمل فى حضرة الربوبية ، والحقائق الخفية الإلهية ، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه ، من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس ، إن كان متفكراً فيها ، أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها .

وإذا كان تقييد الهم بالأعمال الصالحة ، وتفصيل الطاعات ، مانعاً من انكشاف جلية الحق ؛ فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها ، فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقى .

٤ ــ الحجاب . فإن المطيع القاهر لشهواته ، المتجرد الفكر فى حقيقة من الحقائق ، قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه من الصبا على سبيل التقليد ، والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ؛ ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضاً حجاب عظيم حجب به أكثر المتكلمين ، والمتعصب للمذاهب ، بل أكثر الصالحين المفكرين فى ملكوت السموات والأرض ؛ لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية ، جمدت فى نفوسهم ، ورسخت فى قلوبهم ، وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق .

٥ ــ الجهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب ؛ فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول ، إلا بالتذكر للعلوم التى تناسب مطلوبه ، حتى إذا تذكرها ، ورتبها فى نفسه ، ترتيباً مخصوصاً [١] ، يعرفه العلماء بطريق الاعتبار ؛ فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب ، فتتجلى حقيقة المطلوب لقلبه ؛ فإن العلوم المطلوبة التى ليست نظرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة ؛ بل كل علم لا يحصل إلا من علمين سابقين ، يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص ، فيحصل من ازدواجهما علم ثالث ، على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى .

ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة ، لم يمكن ذلك من حمار وبعير وإنسان ، بل من أصل مخصوص من الخيل : الذكر والأنثى . وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص . فكذلك كل علم ، فله أصلان مخصوصان ، وبينهما طريق الازدواج ، يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب .

فالجهل بتلك الأصول ، وبكيفية الازدواج ، هو المانع من العلم .

ومثله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التى الصورة فيها ، بل مثاله : أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلا فى المرآة : فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه ؛ لم يكن قد حاذى بها شطر القفا ، فلا يظهر فيها القفا . وإن رفعها وراء القفا وحاذاه ؛ كان قد عدل بالمرآة عن عينه ، فلا يرى المرآة ولا صورة القفا . فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا ، وهذه فى مقابلتها ، بحيث يبصرها ، ويرى مناسبة بين وضع المرآتين ، حتى تنطبع صورة القفا فى المرآة المحاذية للقفا ، ثم تنطبع صورة هذه المرآة فى المرآة الأخرى التى فى مقابلة العين ، ثم تدرك العين صورة القفا .

فكذلك فى اقتناص العلوم طرق عجيبة ، فيها ازورارات وتحريفات ، أعجب مما ذكرنا فى المرآة ، يعز على بسيط الأرض من يهتدى إلى كيفية الحيلة فى تلك الازورارات [٢] .

---

(١) يعنى بذلك الطريقة المنطقية كما صرح بذلك فى معارج القدس ص ١٠٢ .

(٢) يؤخذ منه نظرته إلى المنطق أهمية وصعوبة . وقد اطرح الغزالى الوثوق بعلم من لم يكن ملماً إلماماً دقيقاً ، بمسائل المنطق الرئيسية ، فقال فى ص ٧ ج ١ من المستصفى :

فهذه هى الأسباب المانعة للقلوب ، من معرفة حقائق الأمور . وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ؛ لأنه أمر ربانى شريف ، فارق سائر جواهر الموجودات ، بهذه الخاصية والشرف ، وإليه الإشارة بقوله عز وجل . « إنا عرضنا الأمانة . على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان » .

إشارة إلى أن له خاصة تميز بها عن السموات والأرض والجبال ، بها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى . وتلك الأمانة هى المعرفة والتوحيد . وقلب كل آدمى مستعد لحمل الأمانة ، ومطيق لها فى الأصل ، ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها ، والوصول إلى تحقيقها . الأسباب التى ذكرناها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم

---

= ونذكر فى هذه المقدمة مدارك العقول ، وانحصارها فى الحد والبرهان ؛ ونذكر شرط الحد الحقيقى ، وأقسامهما ، على منهاج أوجز مما ذكرناه فى كتاب « محك النظر » وكتاب « معيار العلم » وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول ، ولا من مقدماته الخاصة به ، بل هى مقدمة العلوم كلها . ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً » .

غير أن هذا التصريح أغضب كثيراً من العلماء ، خصوصاً ابن الصلاح . قال ابن السبكى فى « رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب » :

« واعلم أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالى — سق الله عهده — افتتح كتاب المستصفى بمنطقية ، وقال : هذه مقدمة فى العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلا .

واختلف أهل العلم والذين بعده ، فذكر الشيخ أبو عمرو بن الصلاح ، أنه سمع الشيخ « يونس » يحكى عن الإمام « يوسف الدمشقى » أنه كان ينكر هذا القول ويقول : فأبو بكر وعمر وفلان ، يعنى أولئك السادة عظمت حظوظهم من العلم واليقين ، ولم يحيطوا بهذه المقدمة . ثم أفتى ابن الصلاح بتحريم الاشتغال بالمنطق . وقال : هو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر الاشتغال بعلمه وتعلمه ، مما أباحه الشرع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين ، والأئمة الس والسلف الصالحين ، وسائر من يقتدى بهم من أعلام الأمة وسادتها ، وأركان الملة وقادتها ، قد برأ من معرفة ذلك وأدناسه ، وطهرهم من أوضاره .

وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية فى مباحث الأحكام الشرعية ، فمن المنكرات وليس بالأحكام الشرعية — ولله الحمد — افتقار إلى المنطق أصلا ، وما يزعمه المنطقى للمنطق ، والبرهان ، قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن ، لا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية ، وفى الشريعة وخاض فى بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لا منطق انتهى وتابعه غير واحد » اهـ .

نقلا عن نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٤٥٥ خصوصية ، وأوراق الكتاب غير مرقومة ، فى الصحيفة الأخيرة من الملزمة الأولى .

« كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه » .
وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ، لنظروا إلى ملكوت السماء » إشارة إلى بعض هذه الأسباب التى هى الحجاب ، بين القلب وبين الملكوت . وإليه الإشارة بما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أين الله ؟ ! فى الأرض أو فى السماء ؟! ، قال « فى قلوب عباده المؤمنين » .

وفى الخبر قال الله تعالى « لم يسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن ، اللين الوادع » .

وفى الخبر أنه قيل يا رسول الله ، من خير الناس ؟ ، فقال « كل مؤمن محموم القلب » فقيل ، وما محموم القلب ؟ ! فقال « هو التقى ، الذى لا غش فيه ولا بغى ، ولا غدر ولا غل ولا حسد » . ولذلك قال عمر رضى الله عنه « رأى ربى » إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين ، تجلى صورة الملك والملكوت فى قلبه ، فيرى جنة عرض بعضها السموات رض ، أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض ؛ لأن السموات والأرض ة عن عالم الملك والشهادة ، وهو إن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف ، متناه على الجملة ، وأما عالم الملكوت ، وهى الأسرار الغائبة عن مشاهدة سار ، المخصوصة بإدراك البصائر ، فلا نهاية له ، نعم الذى يلوح للقلب دار متناه ، ولكنه بالإضافة إلى نفسه وإلى علم الله لا نهاية له .

جملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة ، تسمى الحضرة الربوبية ؛ لحضرة الربوبية ، محيطة بكل الموجودات ؛ إذ ليس فى الوجود شىء سوى عالى وأفعاله ؛ ومملكته وعبيده من أفعاله .

ثا يتجلى من ذلك للقلب هى الجنة بعينها عند قوم[1]، وهو سبب استحقاق

---

) انظر تعريفه للجنة، واعتباره إياها أنها ما يتراءى للقلب ، فإذا ضممت هذا إلى ما قاله فى هذا سه ، من أن القلب هو « اللطيفة الربانية المدركة ، الكائن المجرد » فربما خرج منه أن الجنة أمر وارح فيه نصيب . وقوله « المخصوصة بإدراك البصائر » واضح أيضاً فى أن الجنة مما لا يدرك بالحس=

الجنة عند أهل الحق ، ويكون سعة ملكه فى الجنة ، بحسب سعة معرفته ، وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله .

وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها ، تصفية القلب وتزكيته وجلاءه ، قد أفلح من زكاها .

ومرادُ تزكيته ، حصول أنوار الإيمان فيه . أعنى إشراق نور المعرفة ، وهو المراد بقوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» وبقوله « أفمن شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ؟ ! »] .

ولقد لفت نظرى من هذه العبارة السابقة قوله « بل كل علم لا يحصل إلا من علمين سابقين » ، فهذه العبارة صريحة فى أن تحصيل العلم — سواء فى ذلك علم الأنبياء والأولياء ، وسواء فى ذلك علم العلماء والحكماء — إنما يكون بواساطة الاستنباط والاستنتاج .

وبمثل ذلك صرح أيضاً فى كتابه 'معارج القدس'[1] ، حيث قال « إن العلوم التى ليست ضرورية ، لا تحصل إلا بواسطة الحد الأوسط ، سواء فى ذلك العلماء والأنبياء ؛ غاية ما هنالك أن هذا الحد الأوسط ، تارة يطلب ويشتاق إليه ، ويعمل كمال الجد فى طلبه ؛ وتارة يحصل بالحدس دفعة واحدة » .

وهذا إن صح بالنسبة للعلماء والحكماء فلن يصح — على مذهبه — بالنسبة للأنبياء والأولياء ، فإن الأنبياء يطلعون على اللوح المحفوظ ، فيرون فيه الحقائق ناصعة ، فليسوا بحاجة إذن إلى الاستنباط والاستنتاج . أليس يقول عنهم فيما مر : « لا يدرون من أين حصل لهم العلم ولا كيف حصل » فما لهم وللمنطق إذن ؟ ! ! وما لهم والاستنباط ! ! ! .

وهل الرجل السودانى الذى ينزل عليه المطر شديداً قويا ، ويدرك ذلك بالمشاهدة والعيان ، يحتاج إلى ما يحتاج إليه المصرى من إعمال العقل ومحاولة

---

= فتامل. ثم انظر إلى جعله الجنة حيثيتين :

إحداهما ، مشاهدة عالم الملك والملكوت ، مشاهدة قلبية .

والأخرى ، ما يكون هذا مقدمة له ، وهو الحظوة بلقاء الله ، والقرب منه ، قرباً بالرتبة والشرف ، لا بالمكان والمسافة .

(١) ص ١٦٠ .

الاستنباط ؟ ! ضرورة بعده عن مواقع الأمطار ، فيضطر إلى أن يقول :

١ — إن النيل سريع متدفق ، وإنه يحمل معه كميات كبيرة من الغرين .

٢ — وهذا راجع إلى كثرة المياه .

إذن فلا بد أن يكون مطر السودان شديداً كثيراً .

كذلك النبي أو الوالى الذى يطلع على اللوح المحفوظ ، فيدرك فيه مثلاً أن العالم محدث ، فهل تكون به حاجة إلى أن يروح فيفتش فى هذا العالم ليشاهد :

١ — أنه متغير من حال إلى حال .

٢ — وإلى أن يقدح زناد فكره ليدرك أن المتغير من حال إلى حال محدث .

ثم يقول : يلزم من ذلك أن العالم محدث .

نعم لا حاجة إلى ذلك وإلا كان مثله مثل السودانى الذى يدرك بالمشاهدة أن المطر شديد قوى ، ثم يهمل تلك المشاهدة ، ويكلف نفسه الرحلة إلى الأراضى المصرية ؛ ليرى أن النيل سريع متدفق ، وأنه يحمل معه كميات كبيرة من الغرين ؛ فيقول يلزم من ذلك أن يكون المطر فى السودان شديداً كثيراً .

وهذا عمل فيه جانب كبير من العبث من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه إهمال للجانب الأقوى ، وجرى وراء الجانب الأضعف .

ولعل مما يخفف من حدة هذا الاعتراض ما ذكره الغزالى فى معارج القدس[1] قائلاً :

[ فيمكن إذن أن يكون شخص من الناس ، مؤيد النفس بشدة الصفاء ، وكمال الاتصال بالمبادئ العقلية ، إلى أن يشتعل حدساً فى كل شىء ، فيرتسم فيه الصورة التى فى العقل الفعال ، إما : دفعة ، وإما قريباً من دفعة ، ارتساماً لا تقليديا ، بل يقينيا مع الحدود البسطى ، والبراهين اللائحة ، والدلائل الواضحة ] .

فالغزالى لا يكتفى فى معارف الأنبياء ، بأن يدركوا مجرد الصور التى تنطبع فى نفوسهم ، إذ يجوز أن تكون تلك الصور خواطر مشوشة ، وخيالات فاسدة ، فلا بد مع ذلك أن يكونوا مزودين بالدلائل الواضحة ، والبراهين القاطعة .

---

(١) ص ١٦١ .

ولعل هذا هو السبب فى اعتبار الغزالى الجهل بالمنطق ، بعض الحجاب الذى يحول بين الأنبياء والأولياء ، وبين اللوح المحفوظ .

* * *

ولعل مما يخطر بالبال فى هذا المقام هذا السؤال : هل الكشف الصوفى فى نظر الغزالى طريق لمسائل ما وراء الطبيعة وحدها ؟ ! أم هو طريق للمسائل الأخرى أيضاً ؟

الواقع أن الغزالى — كما سبق القول — كان معنيًّا بمسائل ما وراء الطبيعة فقط ، وبعد البحث لم يطمئن إلى طريق يوصل إليها ، سوى الكشف ، حتى العقل نفسه لم يرضه طريقاً لها ، وإن رضيه طريقاً للحقائق الأخرى .

فالذى للغزالى بصدد هذا ، هو النص على أن الطريق الوحيد لمسائل ما وراء الطبيعة هو الكشف ، والنص على أن العقل ثقة فيما عدا ما وراء الطبيعة .

أما أن الكشف الصوفى يصلح لما عدا ما وراء الطبيعة ، فهذا ما ليس للغزالى فيه نص .

غير أنى أستطيع أن أستنبط رأيه فى هذه المسألة استنباطاً ، إذ قد قرر فى كتابه « الإحياء » أن للعقل طاقة محدودة ، تجعله لا يتسع لكل شىء ، فمن وجَّه عنايته مثلا لعلوم الدنيا ، قلّ حظه من علوم الآخرة ، ومن وجَّه عنايته إلى علوم الآخرة ، قلّ حظه من علوم الدنيا ، ولا يستطيع أن يضطلع بصنفى العلوم إلا عقل مؤيد بالوحى والإلهام ، معد لإرشاد الناس وإصلاحهم . كعقل الأنبياء .

قال[١] :

[ والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية . فالدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم ، وسائر الحرف والصناعات ، والأخروية كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال ، والعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله . وهما علمان متباينان : أعنى أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه ، قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر . . .

---

(١) ص ٣١ ج ٨ « الإحياء » .

ولذلك ترى الأكياس فى أمور الدنيا وفى علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة ، جهالا فى أكثر علوم الآخرة ، لأن قوة العقل لا تفى بالأمرين جميعاً فى الغالب ، فيكون أحدهما بمانعاً من الكمال فى الثانى . . .

فالجمع بين كمال الاستبصار فى مصالح الدنيا والدين ، لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده فى معاشهم ومعادهم ، وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس ، المستمدون من القوة الإلهية ، التى تتسع لجميع الأمور ولا تضيق بها ] .

هذا ما يقوله الغزالى ، ومعروف على رأيه أيضاً ، أن الأنبياء يتلقون معارفهم بطريق الكشف لا بطريق الاستنباط ، فيكون الكشف إذن وسيلة لإدراك الحقيقة من أى نوع .

obeikandl.com